الإسلام والإنسان

الإسلام دين العقل الحر والإنسانية الكاملة. إن الفطرة السليمة تهتدى إلى الإسلام بصفائها ويصور هذا فيلسوف الإسلام «ابن طفيل» فى قصته «حى بنى يقظان».

عرف «وايتد هيد»، الدين، بأنه أمر توحيدى فإذا لم تتوحد على الإطلاق فلست متدينا على الإطلاق فالدين هو وعى الإنسان بفرديته... بقيمته الإنسانية.

وقد احترم الإسلام الإنسان يوم جعل العلاقة بينه وبين الله مباشرة فالمسجد فى الإسلام كالقلب المفتوح، إنه بيت الله بدون حجاب ولا كهانة ولا وسيط. وهذه هى سمة الإسلام الكبرى.

المسجد فى الإسلام مساواة بغير شعارات أو حروف... فالناس فيه سواء من يحضر أولاً، يقف فى الصف الأول ولو كان غفيرا، ومن يحضر أخيرا يقف فى نهاية الصفوف ولو كان أميرا...

وبهذا الاحترام الكامل للإنسان، صنع الإسلام حضارته لقاء حميما بين المادة والروح حين غلبت الحضارات والأديان قبله، أحدهما على الأخر.

الإسلام رؤية جديدة للحقيقة، فحين تستحضر المسيحية ملكوت الله فى القلب البشرى، يستحضر الإسلام ملكوت الله فى داخل النفس وخارجها وما وراء المحسوس.

ومن هذا كان الإسلام دينا وحضارة شعائر وشرائع... فرؤية القرآن لله، رؤية محيطة. إن القرآن الكريم الحافل بالصور ولكنها ليست للتصوير الحسى... إنها رؤى ممتدة... يقول الله تعالى (كلمة طيبة كشجرة طيبة) كيف تصور هذه الآية.

رؤى ممتدة هى انفتاح لايعادى العقل ولكنه أبعد منه مدى... انفتاح يرى الخلد لايعنى استمرار الزمن، ولكنه ما وراء الزمن.

يقول كارليل Karlil فى كتابه «الأبطال» (لو لم يكن محمد فيه صدق لما استطاع دينه أن يعطى هذه الحضارة كلها).

الحضارة هى عطاء الإنسان: عقله وروحه ووجدانه ويده. فوقف عقله وراء تجاربه يدرك الأشياء ويربط بينها ويحلل ويستنتج ويستشف ثم يصل إلى جواب لسؤال حاك فى نفسه أو طرح عليه واقعه.

ومن إشراقات روح اهتدى إلى الدين.

ومن هزات وجدانه أبدع الفن، وأترع الخلق، وأمرع الحب.

ومن صنع يده: الإناء والبناء والنسيج والزرع والشجر.

ومن بدع أنامله الرسم والتصوير والنقش على الحجر.

كان خالقه يعرف قدراته حين ركبه فى أحسن صورة.

وكان ربه يعرف طاقاته حين ميزه بالعقل والنطق وعلمه مالم يعلم... وأكرمه فكتب وقرأ.

بل كرمه على الملائكة فحمله الأمانة.

جعل له عينين ولسانا وشفتين... وهداه النجدين ومع البصر، البصيرة ومع اللسان والشفتين، حبال صوتية فتكلم وترنم.

هذه حقيقة.

وقد وقف «جون ديوى» طويلا عند دور الكلام فى صنع الفكر الذى يقوم على المسميات والصفات.

ولأمر ما بدأ الوحى فى الإسلام بالآية الكريمة (اقرأ بسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم.)

كانت هذه بداية كبرى للإسلام وكانت فاصلا بين الجاهلية والإسلام الذى هو علم ومدنية وحضارة.

* * * *

كتب الانسان على ألواح الخشب وكأن الشجرة أفاءت على الإنسان الظل والنور فى وقت واحد.

على فنن من الشجرة غرد الطير وأرسل النغم.

وعلى لوح من الشجرة غرد الإنسان وكتب بالقلم.

وبلا شك قبل أن يكتب الإنسان، تكلم.

لابد أن يكون الإنسان أحدث أصواتا حين يرقص فرحا ومرحا... أو حين يصيح غاضبا مهتاجا.

ولابد أن يكون الإنسان، قد استحدث أصواتا يقلد بها زفيف الريح أو حفيف الشجر، أو زفيف النسمة، أو هسيس الموج على الحصى، أو خرير النبع، أو هدير البحر، أو زقزقة العصفور، أو هديل الحمام، أو بغام اليمام أو حتى ثغاء الشاة ومواء القطة.

لابد أن هذه الأصوات جميعا لفتته أو أدهشته، أو فتنته... فحاكاها وسار الزمن.. وسار الإنسان.

الزمن يجدد دورته... والإنسان يصنع حضارته... ابتداء بالوسائل وتطورا إلى الغايات. وبين المرحلتين تبين له أن حضارته لاتقوم بغير خمسة عناصر:

الدين... والفن... والعلم... والعمل... والمال.

وقد زكاها جميعا الإسلام ودعا الإنسان إلى رعايتها رعاية جامعة متوازنة يثرى بها، في شمول، روحه وجسمه معا في توفيق دقيق، وحقيق.

ولكن بين المرحلتين أى الوسائل والغايات، بون شاسع وبعد بعيد فأرنولد توينبى يذهب إلى أن أقدم أثر خلقه الإنسان فى رحلته مع الحياة، أو قصته مع الحضارة يرجع إلى ثلاثمائة ألف سنة، وإن كانت آراء أخرى تهبط بهذا الرقم كثيرا لاسيما العهد القديم الذى يحدد عمر البشرية بسبعة آلاف سنة (النص اللاتينى) أو ستة آلاف (النص الإغريقى) حين جاء روبرت هوك فى عصر العلم واستقرأ طبقات الأرض فأكدت الجيولوجيا أن عمر الأرض أضعاف هذا الرقم.

الجيولوجى الدكتور نصرى شكرى فى مقاله (قصة الأرض) يقول إن لكل وحدة، تاريخاً شيقاً... فالنيل بمعناه الواسع تاريخ يربو على خمسين مليون من الأعوام انتقلت فيه دلتاه من الفيوم إلى الصحراء الغربية، إلى مكانها الحالى.

بل إن لكل قطعة من زلط الصوان المنتشر فى الصحارى قصة ترجع إلى مائة مليون عام.

ولكن أكبر من هذا كله وأشمل وأصدق، وصف القرآن الكريم لله جل جلاله بأنه هو (الأول والآخر).

عمر الأرض مليون سنة أو ألف مليون سنة، أو غير هذا... الله هو الأول والآخر.

وانعكس هذا على الفن الإسلامى بما يشهد به غير المسلمين، فى وفاء للحقيقة هو تجرد وتجريد يرتفع إلى أفقه، الإنسان، إزاء الحقائق الساطعة والناصعة. يقول الدكتور بشر فارس فى كتابه الناقد «سر الزخرفة الإسلامية»:

(على المؤمن أن يتوجه بكيانه إلى الله، فالله مصدر جذبه وغاية سعيه فى آن واحد. وفى القرآن الكريم (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) البقرة ١١٥ ...

وفيه أيضا (ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون.) هذان معنيان لايفتأ كتاب الإسلام يرددهما:

من هنا لدونة الزخرفة الإسلامية وقد آل بها المطاف بين يدى الاسلام أن عتقت من الواقعية الهلينيه، وخلصت من الصلابة الفارسية. فلا مبتدأ لها ولا منتهى، وما يجوز لها أن تطمع فى أحد منهما، لأنها تسعى وراء الله الذى (هو الأول والآخر) الحديد ٣.

منه تبتدئ الأسباب وإليه تنتهى المسببات.

وبفضل اللدونة نرى الوحدة فى الزخرفة الإسلامية دوارة تارة وتارة متوترة... وهى، فى أكثر الحال، تلتوى وقلما يدركها البهر... ووجهتها، أبدا، ما لا حد له، فهى ماضية بلا ملل... وهيهات أن تبلغ ما تهدف اليه، فشأنها شأن إيقاع يترنح منقادا للصبر.)

وإن كنت أرى مع الدكتور زكى حسن أن الوحدة فى الزخرفة الإسلامية تتوقف أحيانا عن المضى بعد أن زايلها الشعور بالخوف من الفراغ متأثرة بالفن الصينى.

ولعل الدكتور بشر فارس أحس بصعوبة التركيز فجنح إلى التطبيق قائلا: (أن التفاف العرق بورده وأوراقه، كذلك انبساط السطوح، يقفان فجأة أحيانا، أو ينكسران حتما على الحواجز، عند أطراف الساحة التى تستقبل المنسق. أترى يرضى الالتفاف والانبساط بهذه الهزيمة؟ كلا! أما العرق فلا تختتم مداته، وإما السطح فلا تلتحم أضلاعه... بل كل يصل إلى المدى المقدر له وهو فى فوران نشاطه: إما عند رأس انثنائه، وإما فى قلب اشتباكه، كأنما يتأهب لاستئناف الاندفاع، فيدعوك إلى أن تثب وراءه فى الخلاء، لعلك، من

openkanal.com

طريق التخيل تلاحق جولانا صدمته قسوة الواقع... تلك نشوة مشت فى الخط تنبئك أن أفق الغيب المستغلق دون المؤمن مشغلة دائمة لذوقه.)

* * * * *

وهكذا يكون الإسلام مددا للحضارة، وسندا للفنان أى الإنسان المتحضر. وإذا كان فى الأدب يفقد الكثير حين الترجمة، فإن التشكيل له قدرة على الإقناع والإمتاع عبر حواجز الجنس والمسافة واللسان.

والقرآن الكريم فى توجيه لروائع الخلق: (هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى) (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله.)

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت.)

وفى القرآن الكريم توجيه للنور والظلال: والشمس وضحاها، والقمر اذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها.)

والإبداع الفنى لغة علمية مغروسة فى نفس الإنسان كغرائزه. وبعض الإبداع متاح حتى بغير تعلم... ولكن هناك إبداعاً مشحوناً بمجاهدات روحيه. وهذا مقصور على من وهب.

يعدد الدارسون الفنون بأنها فى الأدب والرسم والنحت والتصوير والموسيقى... وننسى فن الرؤية... فن التلقى... فن البصيرة الذى هو باب من أبوا ب الحياة.

وهذا الباب فتحه القرآن الكريم على مصراعيه فى دعوة دائمة ودائبة للتأمل. والإسلام ربيب الصحراء، خير معين على هذا التأمل.

والإسلام المتحضر الفنان، يدعو إلى الجميل فى العمل والقول حين زكى الحسنة. والحسنة من الحسن. والحسن من الجمال. والعمل الجميل هو الذى يرضى (كل) الإنسان أى ذوقه وعقله ومشاعره.

والشيخ شلتوت يقول (المعروف ماتعارفت عليه الفطر).

ومن هنا جاءت تسمية المنكر.

ولأمر ما تشابهت الحروف أو تماثلت بين الطيب (بفتح الطاء) والطيب (بكسرها).

إن الحضارة قيمة.

والعمل قيمة فى الخلوص له... والخلوص نقطة لاترى... نقطة تلاقى الكيان الإنسانى بمذخوره، مجمعا، فى سن القلم أو الريشة عند ملامستها للصفحة أو اللوحة.

هنا يكون العمل عطاء قلب... وفيوض روح.

وهذا التفسير للحديث (ان الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) والعمل الحديث يبدو أنه نسى هذا المعنى... إنه يضفى على الإنسان خيرات مادية ولكنه يسلبه إنسانيته.. أى يحوله إلى آلة.

لا استغناء عن الآلة.

لاعودة إلى الوراء.

ولكن كل مانريده هو استئناس تصحيح الآلة.

لقد قتلنا كما يقول هكسلى، «الكرافت» أى الصنعة اليدوية، أى فن توليد الحب.

إننا الآن نشيع اللاحب فى الحياة الحديثة أى «الآلية» الحاسب الاليكترونى حين يحرر الإنسان من الأعمال الصغيرة، مقبول كما حررت المطبعة، المؤلف، من النسخ.

ولكن العقل الاليكترونى حين يلغى عمل الإنسان أو يطغى عليه مرفوض. إن العمل إيمان.

والحضارة فى عصور زهوها، عمل جوده أصحابه لإيمانهم به وتحقيق ذاتهم من خلاله.

إن أزمة الإنسان المعاصر، أن التربية الحديثة عنيت بذهنه دون وجدانه، فعجز عن إيجاد المعادل المعنوى للتقدم العلمى.

إن البحث العلمى الحقيقى تجربة وتجرد. وعصرنا امتاز فى الوسائل من تليفون (مسرة) وبرق، الخ ولكنه يفتقد القيمة التى تتركز فى الدين والفن والفضيلة.

والإسلام قيمة كبرى لعناقه مع الحياة فى ود موصول يطبع حضارته بفنونها وعلومها حتى غدا له طابعا. يقول م. س. ديماند فى كتابه «الفنون الإسلامية»: (يمتاز الفن الإسلامى بتنوع عظيم أصاب نواحيه وأشكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله،

وهذا التنوع بلغ من الشدة حدا يصعب فيه كثيرا أن تجد فيه تحفتين متماثلين ومع ذلك يمتاز بوحدته).

الواحـد هو الأصل فى العـدد... وفى الكون... والتنوع هو الظاهرة الكبـرى فى الطبيعة... والفن الإسلامى لم يعط الصورة إنسانا أو شجرا أو نـهرا «كينونه» لأنه اعتبرها ظلالا عابرة فى طريق تطلعه الدائم إلى ماوراء الطبيعة.

إلى الله الواحد.

وحين تمثل الفن الإسلامى هذا المعنى، خرج خلاصة مقطرة للحيوية والحياة.

إن الإسلام يتجاوز بالتوحيد، النطق بالشهادتين، إلى توحيد الذات فلا انفصام ولاتشقق، وتوحيد المجتمع فيبرأ من التشيع والتطاحن، وتوحيد العالم نحو القيمة الكبرى أى الله.

وحين كـرم الإسلام، الإنسان، بالحرية والشورى، وإرادة الاختيار، ودعوة التأمل والتفكير، حتى ليقول الأستاذ العقاد (التفكير فريضة اسلامية)... كان أكثر من طقوس كان قيما ومبادئ.

الموسيقى:

هناك بلا شك اختلاف بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية فى العصر الحديث. وهو اختلاف ليس مرجع تفاوت فى الفطرة الإنسانية بدليل وجوده بين الأوربيين أنفسهم إذا قارنا موسيقاهم الحديثة بما سبقها من موسيقاهم القديمة، بل إن الشعوب الأوربية اليوم لاتطرب لما يطرب له خاصتها من الموسيقى العملية المركبة.

لقد كان الأوربيون يتعلمون الأنغام على يد العرب فى الأندلس حتى ظلت أسماء الآلات العربية فى اللغات الأوربية إلى اليوم فكلمه لوت Lute من العود. وكلمة نكرا Maker من النقاره وكلمة de clé أو المفتاح الموسيقى من أقليد، وكلمة Rebec من الرباب بل إن الأستاذ فارمر يقرر سبق العرب إلى نوع من الهرمونية يسمونه التركيب وعنوا به توقيع النغمة الواحدة من عدة طبقات فى وقت واحد.

جاء فى موسوعة مكملان للموسيقى والموسيقيين: أن نيقولا رمسكى كورساكوف Karsakoof أنشأ جماعة لدراسة ربع المقام منذ نيف وعشرين سنة فى لننجراد.

وقد أُخذ غير واحد من الموسيقيين الأوربيين فى العصر الحديث بربع المقام فى توزيعاتهم الموسيقية وتوقيعاتهم حتى الأوبرالية وتقسيماتهم المسرحية وغير المسرحية.

ووضع الكندى (٨٠١ – ٨٧٠) وهو من علماء الرياضة، أسسا نظرية للأصوات الموسيقية.

ويمت إلى الموسيقى علم الأصوات الكلامية الذى اخترعه المسلمون عندما حاولوا وضع أسس نطق القرآن بالطريقة التى نطق بها الرسول عليه السلام... ويسمى «علم التجويد». وهو يصف نطق الحروف المختلفة على أساس حركة الهواء فى الفم والحنجرة.

لقد كان سادة أوربا يفخرون بما يقتنونه من قرطبة فى عهدها العربى، من منسوجات أو مصوغات أو آنية فخارية. وإلى قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية كان يتوافد طلاب التحف والترف والموسيقى والغناء بل الدواء أيضا. حتى ليقول المؤرخ الإنجليزى استانلى لاين بول (إن حكم عبد الرحمن الثالث الذى قارب من خمسين عاما أدخل على إسبانيا تجديدا لايلم الخيال – على أجمع مايكون – بحقيقة فحواه).

إن عدد المؤهلين فى العلوم الهندسية الذين هاجروا من الدول الإسلامية إلى أمريكا وأوربا يقدر بحوالى ٣٠ ألفا، وصل بعضهم إلى مراكز قيادية فى أعمال البحوث والتطوير فى بيئتهم الجديدة وهناك ٧٥٤ من هؤلاء المتخصصين ظهرت أسماؤهم فى الطبعة الأخيرة من كتاب (رجال ونساء العلم الأمريكيون) منهم ٣٢١ من الدول العربية و١٦٧ من الهند وباكستان و١٠٦ من إيران وأفغانستان و٧٦ من تركيا. وفى مجالات التخصص منهم ٢٢٦ مهندسا و٣١٣ فى العلوم الطبيعية والبيولوجية و٢٢٥ فى العلوم الطبيعية والرياضيات (ص ٢٥ مجلة العلم والمجتمع عدد ٢٥ ديسمبر ٧٦ – فبراير ١٩٧٧).

وقد جعل الفنانون العرب، المسلمون، من الخط العربى بأنواعه المختلفة من كوفى إلى نسخى ميدانا كبيرا للزخرفة. يقول د. فريد شافعى (أخرجوا من الحروف وأطرافها أشكالا وعناصر من الزخرفة تتجمع فى كلمات وعبارات ينتج منها كلها موضوعات زخرفية ذات إيقاع فنى متناغم وتبرزها وتؤكدها فى أحيان كثيرة عناصر نباتية وهندسية وضعت فى مستوى خلفى منها لتزيد من حسنها وجمالها وزينوا بها منتجات الفنون من عمارة وتحف زخرفية (ص ٢٦٤ – ٢٦٥).

كما ابتكروا من الأشكال الهندسية ألوانا وأنواعا جديدة ألفوا بينها وأنتجوا منها أعدادا لاحصر لها من الوحدات والتكوينات الزخرفية التى تسيطر على المشاعر.

وأنتجوا سجلا حافلا من العناصر النباتية من أوراق وزهور وثمار فى أشكال تجريدية محورة ذات طابع عربى إسلامى فريد.

ولقد بلغ من روعة تلك الابتكارات الزخرفية أن أطلق الفنانون الأوربيون كلمة أرابسك على أية تكوينات زخرفية تتشابك فيها العناصر حتى ولو كانت غير اسلامية.

تتهم الحضارة الإسلامية بمجافاتها لفنى: التمثيل والتصوير، والتصوير هنا المقصود به: الرسم والنحت. ولو حللنا هذا لوجدنا السبب فى معنى المسجد فى الإسلام فالإسلام جعل علاقة الإنسان بالله مباشرة بلا وسيط ولهذا لم يهتم المسلمون بحشد المساجد بالصور والتماثيل حين اعتنوا بالبناء الجميل والقباب الفاخرة والمحاريب. ولاشك أن العرب قد اعتمدوا فى هذا على الأمم التى سبقتهم فى هذه الفنون وهم الفرس والمصريون والروم وأنهم استعانوا بالبنائين من القبط والأرمن فى كثير من العمارات ولكن الذى لاشك فيه أيضا كما يقول الأستاذ العقاد أن الروح العربية كانت وراء اليد الصانعة والمبدعة حتى ليتساءل: (من الذى يتملى منظرا من مناظر القصور العربية ويعزل بينه وبين رشاقة النخلة الهيفاء وخفة الفرس الضامر وهودج الحرم المكنون وتناوب الحياة بين الفضاء والظلال؟ ومن ذا الذى ينظر إلى تلك الأقواس والنوافذ ولايعقد الصلة بينها وبين الحافر تارة والخف تارة أخرى؟ بل من ذا الذى يسمع المقابلة بين المصاريع والقوافى فى الشعر العربى ولايلمح المصدر الذهنى أوحى به ماثلا فى الأنساق والمقابلات أو فى المربعات المتقابلة كما ظهرت فى أول بناء حج إليه العرب وهو البيت الحرام؟).

وقوى نفوذ الفن الإسلامى حتى شاع فى انجلترا فى عهد الملكه اليصابات وما بعده وكانوا يسمونه Arabesque.

بعد هذا يتضح لنا أن العرب لم يجافوا فن الرسم والتصوير بالصورة التى حاول البعض تجسيمها. إن أشعارهم وهى سجل تاريخهم فى الجاهلية حافلة بأوصاف الدمى والعرائس... وإشعارهم فى عهد دولتهم الإسلامية حافلة بأوصاف التصاوير فى الملابس والمبانى وآنية وحلى الزينة وقصور الملوك والأمراء. وقد أحصى المغفور له أحمد تيمور باشا فى كتابه الكبير عن التصوير عند العرب مئات الأبيات التى تدل على انتشار الرسم والنحت فى الآثار الإسلامية وأورد غير قليل من الأسماء العربية التى تفرغ أصحابها لهذا الفن وعكفوا على النقش بل ونحت التماثيل من المعادن والأحجار.

obeikandl.com

ومهما يكن من أمر فإن أشد الناس تعصبا لايمكنه الإقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية، وترتبت على ظهور محمد النبى (صلى الله عليه وسلم) العربى وعلى قيامه ببث الدعوة إلى الدين الإسلامى وعلى انتشار هذا الدين فى منطقة كبيرة من العالم، فإن ما أحدثه محمد (صلى الله عليه وسلم) بما أتى به من عقيدة وتعاليم يدعو بها الناس إلى عبادة رب واحد عظيم، وإلى خلق قويم، وترشدهم إلى مافيه صلاحهم وصلاح البشرية، وإلى العلم والعدل والشورى... كل ذلك لاشك يعد نقطة تحول هامة فى مجرى حضارات العالم ولايمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث أخر فى تاريخ البشرية.

obeikandl.com